مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد: 01 عدد: 02 السنة: 2002

الحب الإلهي في شعر الأمير عبد القادر

مصدق بوعافية، أستاذ مساعد

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

قسم اللغة العربية كلية الآداب والحضارة الإسلامية

ملخص:

ترمي هذه الورقة البحثية إلى التعرف على شعر الأمير عبد القادر الجزائري، للكشف عما يحفل به ذلك الشعر من معاني و مقاصد صوفية ومن أبرز تلك المعاني: الحب الإلهي أو الحب الصوفي ويتساءل الباحث عن عوامل ظهور هذا النوع من الشعر لدي الأمير رغم أنه جرد من نفسه مجاهدا يدفع الحيف والظلم عن بلده و يطارد الاستعمار بسيفه وقلمه، كما تكشف الورقة عن مظاهر ذلك الحب ومنابعه و أصوله، وقد خلص الباحث إلى أن حب الأمير كان حبا إنسانيا متوافقا مع أصول العقيدة الإسلامية و المذهب السني الذي تتبعه البلاد الجزائرية

Abstract

This research paper aims to identify the poetry of elamir Abdul Qadir Al-Jazairi, to reveal the Sufi meanings and purposes in which that poetry is filled, and the most prominent of these meanings is: divine love or Sufi love. The researcher wonders about the factors for the emergence of this type of poetry in emir, even though he was stripped of himself. A mujahid who defends injustice against his country and pursues colonialism with his sword and pen. The

paper also reveals the manifestations of that love, its sources and origins. The researcher concluded that the love of elamir was a human love that was compatible with the origins of the Islamic faith and the Sunni doctrine that the Algerian country follows.

أولا: الحب مفهومه في اللغة والشرع:

تدل كلمة حب في معاجم اللغة العربية على معان هي كما يقول ابن فارس: الحَاءُ وَالبَاءُ أُصُولٌ ثَلاثَةٌ، أَحَدُهَا اللُّزُومُ والثَّبَاتُ، والآخَرُ الحَبَّةُ مِنَ الشَّيءِ ذِي الحَبِّ، والثَّالِثُ وَصْفُ القِصَرِ [1] فكأن الحب ملازمة المحب لمحبوبه و الحبة من ذوي الحب الواجدة منه و من ذلك حبة القلب أي سويداؤه [2] ولا ريب ان الحب موطنه القلب، أما الأصل الثالث وهو القصر فيوصف به الرجل القصير فيقال ورجل حبحاب[3] و لا ريب انه بعيد عن معنى الحبن وللكلمة معاني كثيرة جدا لا يسعنا استقصاؤها في هذا الموضع

أما الحب في الشرع فيقول فيه أحد العلماء: إن محبة العبد لربه تكون على درجتين: إحداهما المحبة العامة التي لا يخلو منها كل مؤمن، وهي واجبة والثانية وهي المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربانيون وأولياء الله الصالحون وهي أعلى المقامات فإن ساير مقامات الصالحين كالخوف والرجاء والتوكل..مبنية على حظوظ النفس ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه والراجي إنما يرجو منفعة نفسه بخلاف المحبة فإنها من أجل المحبوب [4]. أما موجبات المحبة لله فتعود إل أمرين هما: الجمال والإحسان، "فأما الجمال فهو محبوب بالطبع مثل جمال الله في حكمته البالغة وصنعته البديعة وصفاته الجميلة الساطعة

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، مج: 1، ص ص: 275-276.(مادّة حبب).
[2] المصدر نفسه ص مح 3.ص 31.
[3] الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، د.ب، د.ط، د.ت، ج: 3، ص: 31.(مادّة حبّ
[4] عمر العرباوي، كتاب التوحيد، الجزائر، 1404 هـ ، 11984م، ص 15.

الأنوار وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وإحسان الله إلى عباده متواتر.[5] فهذا معنى الحب عند علماء الشريعة إجمالا.

ثانيا: الحب في منهج الصوفية:

ولما كانت التجربة الروحية عند الصوفية لازمة عن شوق ملح من الوجدان الداخلي في معرفة الله والاتصال به، فقد لزم عن ذلك أن يلازم المتصوف حب إلهي، ويظل هذا الحب يلزمهم جميعا ويبقى ملازما لهم.. في جميع المقامات والأحوال إذ لولاه لما تحركت النفس شوقا إلى سلوك الطريق الصوفي[6]

غير ان بعض الصوفية يفرقون بين الحب المادي والحب الخالص: رابعة العدوية ت 185 هـ تفرق بين نوعين منه تسمي الأول حب الهوى وتدعو الثاني الحب الذي لله خالصا فتقول:[7]

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عما سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

ويفسر الإمام الغزالي هذا الذي عنته رابعة بقوله: ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما.[8]

[5] المرجع السابق، ص 16.

[6] علي نجيب عطوي، ابن الفارض شاعر العزل في الحب الإلهي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1 1414هـ 1994 م، ص 54.

[7] المرجع نفسه، ص 61 وانظر: دائرة المعارف الإسلامية ص 297.

[8] الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4 ص 411.

وقد تحول الحب الإلهي من حب بريء خالص من أي شائبة تشوب صفاء العقيدة إلى فكرة الفناء في المحبوب و هي الفكرة التي نادى بها البسطامي[9] أبو يزيد، وتقوم فكرة الحلول على تجرد النفس عن رغباتها وقمعها لشهواتها وحلول إرادتها في الإرادة الإلهية[10]،ومن ذلك قوله:[11]

أشار سرب إليك حتى فنيت عنك ودمت أنت

محوت اسمي ورسم جسمي سألت عني فقلت أنت

فأنت تسلو خيال عيني فحيثما درت كنت أنت

يعبر الشاعر هنا عن فكرة الفناء التي لهج بها الصوفية، وعلى قدر اتساع العارف في المعرفة يكون فناؤه عن العالم وبقي مع الله ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا ولا رسما ولا طللا يقال إنه فنى عن الخلق وبقي بالحق[12]

ولعل ابن عربي أكبر صوفي جسد فكرة الحب الإلهي و قد أخذها من مصادر متعدة، "ولهذا أصبح صاحب فلسفة في الحب فلسفة كونية تنظر إلى الكون في وحدته الوجودية نطرة عامة شاملة وإلى الإنسان على أنه كون أصغر فالكون الأكبر هو العالم و الكون الأصغر هو الإنسان والإنسان وهو مظهر من مظاهر الوحدة الوجودية يمثل ..التحلي الإلهي لهذا كان الحب في فلسفة ابن عربي الوجودية دينا "[13]

[9] هو أبو يزيد طيفور بن عيسى، كان جده مجوسيا وأسلم، من كبار الزهاد توفي سنة 261 هـ انظر الرسالة القشيرية ص 61.

[10] علي نجيب عطوي، ابن الفارض شاعر العزل في الحب الإلهي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1414هـ 1994 م، ص 69.

[11] المرجع نفسه، ص 69.

[12] أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، 1409 هـ- 1989 م مطابع مؤسسة الشعب، القاهرة، ص 149.

[13] إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف ـ الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، د ت د ط، ص47.

ويعبر ان عربي عن هذه الفكرة بقوله:[14]

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان وبيت لأوثان

ودير لرهبان وكعـبة طائـف وألواح توراة ومصحف وقرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

لقد انتقل ابن عربي في غزله هذا الحب البشري لأنه يتغزل فيه بامرأة عربية عرفها في مكة المكرمة، إلى الحب الإلهي لأنهما عند ابن عربي شيء واحد أو إن أحدهما يؤدي إلى الآخر[15]

ثالثا: تصوف الأمير: 1222 ـ 1300هـ/ 1807 ـ 1883م الأمير لقب للسيد عبد القادر بن محيي الدين الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، و بذلك حاز الأمير شرف الانتماء الى هذا النسب الشريف[16] الذي له قبول في قلب كل مؤمن غير أن الأمير لم يكتف بهذا الشرف و حسبك به فقد نشأ نشأة دينية صوفية في أسرة متدينة ووالده كان شيخا للطريقة القادرية و ربما لم يخطر على بال الأمير يوما أن يصبح رأسا لدولة أساسها الجهاد في سبيل الله فقد كان مؤهلا ليصير شيخا صوفيا مثل والده[17].وتصوف الأمير ليس بالأمر الذي يحتاج إلى كثير من الجدل ويؤيد ذلك مؤلفات الأمير نفسه ، و في مقدمة تلك المؤلفات: كتابه الذي عنوانه: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد "ويجمع باحثو ودارسو

[14] ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، ط 3، 1424 هـ ـ 2003ص43.

[15] إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف، ص 48.

[16] عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ص 11.

[17] المرجع نفسه، ص 152.

حياة الأمير عبدالقادر وآثاره على أن كتاب " المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد" هو أهم مصنف ألفه الأمير سواء من ناحية الحجم أو الموضوعات التي يبحثها حيث أودع فيه زبدة تجاربه وبين فيه بوضوح مذهبه الروحي والصوفي والفلسفي في الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها" وحصيلة تأملاته حيث أقدم فيه على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي .... وبث فيه آراءه الإصلاحية بثاً دقيقاً آملاً متفائلاً بتحقيق رجائه الودود المنشود في الإصلاح لأن المواقف أمثلة لما يراه ويريه غيره في مجالسه لا سيما الخاصة منها لخلصائه ومريديه"[18]، ويبدو أن الأمير اختار هذا العنوان لكتابه متأثرا بغيره من العلماء الصوفية ولعل أظهر من يستشهد به في هذا الموضع محمد بن عبد الجبار النفري ت354 هـ في كتابه المواقف والمخاطبات، وليس عجيبا أن يتأثر الأمير بهذا الكتاب إذن إن تأثيره اتسع ليشمل الأعمال الأدبية شعرا ونثرا في الأدب العربي المعاصر ويتجلى ذلك في أعمال الشاعر الحداثي أدونيس فقد تأثر برمزية النفري ولغته الصوفية المواقف[19]. وتتجلى الصوفية في جانبها الإبداعي في ديوان الأمير الذي سيكون من أهم مصادرنا في بحث قضية الحب الإلهي في حياته وشعره.

ومن مظاهر تصوف الأمير انتسابه إلى الطريقة القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ت 561 هـ ، وقد دخلت هذه الطريقة الى الجزائر على يد الشيخ أبي مدين شعيب التلمساني 594 هـ "وورث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش صاحب كتاب إعانة الراغبين في الصلاة وهو يعتبر شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية القادرية وقبل وفاة عبد السلام بن مشيش ورث طريقته الى تلميذه أبي الحسن الشاذلي ومنه انتقلت الى الشيخ

[18] المرجع السابق، ص 223.

[19] النفري، المواقف والمخاطبات، تحقيق: أرثر أربري تقديم عبد القادر محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 11.

مصطفى بن المختار الغريسي القادري ومنه الى ابنه الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر"[20]، ويعد الأمير انتسابه الى هذه الطريقة من مفاخره مما يدل على اعتقاده الراسخ بسمو تعاليم تلك المدرسة الصوفية و وأهميتها في تزكية النفس و تربية مريديها على اتباع القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ، وذلك أن تصوف الأمير من ذلك النبع النقي الذي ينتمي إلى السنة و يبتعد عن الغلو و البدع أو التوجه الى التصوف الفلسفي المغالي في التأثر بأفكار الفلاسفة و بعض المذاهب الغريبة عن سماحة الإسلام وتوحيده الخالص لله تعالى وقد أوضح الأمير انتسابه بل اعتزازه بانتسابه للطريقة القادرية في قصيدة فخرية جهادية يقول فيها:[21]

فنحن لنا دين ودنيا تجمعا ولا فخر إلا ما لنا يرفع اللوا

مناقب مختارية قادرية تسامت وعباسية مجدها احتوى

يعتز الأمير أولا بانتسابه الى الرسول النبي المختار فذلك لا ريب أعلى المفاخر ثم يفتخر بعد ذلك المدرسة القادرية المعرقة في المجد، غير أن الأمير لا يلبث أن يشيد باتجاهه الفقهي السني حيث يفتخر بتبحره في فقه مالك بن أنس الأصبحي كما يقول:[22]

وإن رمت فقه الأصبحي فعج على مجالسنا تشهد لواء العنا دوا

ومالك بن أنس كما نعلم هو إمام دار الهجرة الذي تضرب أكباد الإبل لطلب علمه كما أنه إمام في السنة وإمام في الحديث، وما اعتزاز الأمير بالمذهب المالكي إلا دليل على توقيره للسنة و تمسكه بها.

[20] عبد الجليل ساقني والصديق تياقة، الطريقة القادرية كمنهج في التصوف بالجزائر، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية مج، 19 العدد 18، جامعة 20 أوت، سكيكدة، 2019، ص169.

[21] الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق وشرح: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق. ص 31.

[22] المصدر نفسه، الموضع نفسه.

رابعا: مظاهر الحب الإلهي في شعر الأمير:

أ/تعلق الصوفي بشيخه:

نظم الأمير قصائد صوفية كثيرة و خاصة في المرحلة التي أعقبت إطلاق سراحه من السجن فانتقل الى دمشق و هناك عاش حياة فيها دعة واستقرار لذلك ألف فيها أهم كتبه و نظم فيها أروع قصائده الصوفية كما نظم الأمير قصيدة تشوق فيها إلى لقاء شيخه الفاسي الذي التقاه بمكة وأخذ عنه طريقته وهي من مطولات الأمير وفيها تظهر نزعته الصوفية بشكل جلي وقد ألم فيها هذه الرائية بكثير من المعاني الصوفية، "ومن عادة رجال الصوفية أن يرمزوا بالحبيب إلى الذات الإلهية في غالب أو إلى الرسول(ص) تارة أخرى الأحيان إلا أن الأمير في قصيدته هذه يرمز بالحبيب إلى الشيخ محمد الفاسي اعتقاداً بل يقيناً من الأمير بأن هذا الشيخ لا يعدو أن يكون ولياً صالحاً وعالما الذين من أولئك الذين سلكوا سبيل البشير المصطفى والذين وصفهم ربهم بقوله:" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون – سورة يونس.آية 6"[23]

يقول في ذلك:[24]

إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى بعيد ألا فادن فعندي لك الذخر

فشمّرت عن ذيلي الإطار وطار بي جناح اشتياقٍ ليس يخشى له كسر

وما بعدت عن ذا المحب تهامةٌ ولم يثنه سهل هناك ولا وعر

إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا وحطت بها رحلي وتم لها البشر

[23] عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، ص 157.

[24] الأمير عبد القادر الديوان، ص136.

بطاح بها البيت المعظّم قبلةٌ فلا فخر إلا فوقه ذلك الفخر

بطاح بها الصيد الحلال محرمٌ ومن حلها حاشاه يبقى له وزر

تعتلج في نفس الشاعر عواطف متنوعة فقد طار شوقا الى لقاء شيخه الذي أخذ عنه الطريقة و قرت به عيناه، ولكم الأمير يتوجه بشعره إلى الواضع التي تذكره بالأحبة فيعطيها حقها من الوصف الصوفي، فقد جرى كبار المحبين من الشعراء العرب على ذكر المواضع التي تذكرهم بأهل الود الغابرين فكأن تلك المواضع بقية مما ترك أولئك الاحباب فهي دائما وجهة قلوبهم ومناجاتهم ونحن هنا نذكر أحد كبار الشعراء الذي ألموا بذكر تلك المواضع في مقاطع تفيض رقة ونعنى به الشريف الرضي في حجازياته و ابن الفارض وغزلياته الصوفية.

فقد نزل الأمير بمكة و بطاحها فتم له ما أراد و حقق المرغوب لأنه حل بمواضع محرمة لا يباح صيدها ولا يعضد شوكها ولا يقطع شجرها و لا يحل فيها القتال وهي مواضع يزداد أجر العابد فيها ويضاعف، لذلك فهي حرية بكل احترام و توقير وما ذلك الا أنها موئل قلوب المؤمنين من لدن إبراهيم عليه السلام إلى آخر الدهر.

وقد بلغ الأمير في تعظيم شيخه إلى درجة أنه يقبل قدميه والبساط الذي يجلس عليه، و هذا التذلل للشيخ من صفات المريد الطائع المقبول ولا ريب أن هذا الخضوع نابع من حب الأمير لشيخه و ذلك أن حبه في الواقع حب لله تعالى لأن محبة الأولياء واجبة فهو سبحانه يحبهم و يحبونه، يقول الأمير في ذلك:[25]

فقبلت من أقدامه وبساطه وقال لك البشرى بذا قضي الأمر

ثم يستطرد الأمير في مدح شيخه على الأسلوب التقليدي في المدح

ب/ رمزية الحب الإلهي:

[25] الأمير عبد القادر ، الديوان، ص137 .

من المعلوم عند المشتغلين بالخطاب الصوفي أن الصوفية يديرون كلامهم على الإشارة والايماء، فالأدب الصوفي كله أو أغلبه رمز لأن التصوف هو طريق إلى إدراك عالم الروح و الذوق و كل ما هو باطن لذلك لا يتم التعبير الصحيح عنه إلا بالأسلوب الرمزي، وقد توسل الصوفية بالرمز للتعبير عن مقاصدهم لأسباب و دوافع يوضحها الامام القشري بقوله" اعلم انه من المعلوم ان لكل طائفة من العلماء لهم الفاظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم و تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم للمخاطب[26]. وللأمير قصيدة في الحب على طريق الرمز الصوفي اقتفى فيها أثر السهروردي المقتول ت 586هـ في قصيدته التي أولها:[27]

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وقد أراد الأمير أن يجاري هؤلاء الشعراء ليدل بذلك على علو كعبه في التعبير الفني البارع عن المعاني الصوفية التي يختص بها القوم جريا على طريقتهم فالتزم الروي نفسه الذي نظم فيه السهروردي وكثيرا من ألفاظه وعباراته، ونحن نحاول أن نجلي أسلوبه في الإشارة إلى معاني الحب الصوفي.

يستهل الأمير قصيدته بالإفصاح عن فرجته الكبرى بلقاء الحبيب الذي تم لم الوصل به بعد طول بعاد ويعد يوم اللقاء من أروع الأعياد كيف لا و الأحبة قد خلوا منه مكان الروح وجالوا في النفس مجال ويتحقق له في هذا اللقاء الارتياح وتناله نشوة السكر لأنه سكر بخمر المحبة، ويكاد الأمير ينسخ معاني السهرودي ذاتها ولا عجب في ذلك فالأمير شاعر صوفي والشعر الجزائري في تلك المرحلة كان شعرا تقليديا على الأعم الأغلب و يكفي الأمير

[26] القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، كطابع مؤسسة الاشعب، 1409هـ -1989 م ص130.

[27] السهروردي، ديوان السهروردي المقتول، صنعه وأصلحه: الدكتور كامل مصفى الشبيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، 2008 ص 58.

شرفا أنه أول شاعر جزائري كتب و ألف ونظم في المعاني الصوفية فله فضل الريادة في ذلك.[28] ثم ينتقل الأمير الى معن متداول بين المحبين وهو أنهم يرون الاحبة في كل ما يحيط بهم من معالم الجمال فحيثما وجه وجهه لاح له جمال المحبوب ولكن هل في هذا تشبيه للمحبوب بتلك المعالم الفاتنة ، اذا كنا في مجال المقارنة بين محاسن المخلوقات فإن ذلك سائغ مقبول، فكثير من الشعراء يرون الحبيبة وردا و عيونها عيون المها و قدها غصنا متأودا وهكذا، لان معاني الحسن هنا أرضية، أما على الصعيد الصوفي فلا يستقيم هذا التشبيه فلم يبق إذن إلا أن يعد ذلك رمزا لله تعالى الذي هو الحبيب بحق سبحانه ولا ريب ان آياته وآلاءه مجلوة لكل عين غير أن تلك الآيات ليست هي عين الذات الإلهية و أحسن ما يقال فيها إنها آيات تذكرنا بجميل إنعامه وقد دعانا الحق سبحانه الى النظر في تلك الآيات لنستدل بها على صفاته لكن لا ندرك بها ذاته العلية.

يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وحققت في محيا الحسن ترتاح

دبّت حميّاهم في كل جوهرةٍ عقل ونفس وأعضاء وأرواح

فما نظرت إلى شيء بدا أبداً إلا وأحباب قلبي دونه لا حوا

نظرت حسن الذي لا شيء يشبهه فما يروقُ لقلبي بعد ملاح

وليس في طـــاقتي الرؤيا لغيرهـــم ولو قلتني الورى في ذاك أو شاحوا

ينتقل الأمير بعد ما أوضح أن جمال محبوبه فوق كل وصف وأنه شيء يثنيه عن حبه ، إلى معنى صوفي آخر وهو مسالة كشف أسرار المحبة الصوفية أو كشف الحقائق الصوفية فرغم أن من يصرح بحبه من المحبين لابد هالك لكنك تراه متهالكا في ذلك لا يأبه بعذول

[28] الأمير، الديوان، ص 152.

ويعلل هذا الأمر عند الصوفية بغلبة الحال على الصوفي وذلك لأن الصب تفضحه عيونه كما يقال، وقد عبر السهروردي عن هذا المعنى في قصيدته المشار إليها بقوله:[29]

واحسرتا للعاشقين تحملوا سر المحبة والهوى فضاح

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح

وإذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السفاح

وهذا ما يكاد يردده الأمير بلفظه في قوله:[30]

لوكنت أعجب من شيء لأعجبني صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا

أريد كتم الهوى حينا فيمنعني تهتّكي كيف لا والحبّ فضّاح

لا شيء يثني عناني عن محبّتهم ولا الصوارم في صدري وأرماح

قال العواذل فيك السحر قلت لهم نعم ولي صحة فيه وإصلاح

يردد الأمير تلك المعاني و لكنه قد يستخرج منها معاني طريفة من ذلك أنه يعد الهوى سحرا و لكنه سحر تشفى به القلوب، وليس هو من قبيل سحر هاروت و ماروت المذكورين في القرآن الكريم، في قوله تعالى: "وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمان منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه" البقرة/ 102، وهذا يعني أن سحر الأمير من النوع الحلال لا تأثيم فيه و لا كفر لأن حقيقة السحر إفساد القلوب أما حب الأمير فهو لها شفاء.

[29] السهروردي المقتول، الديوان، ص 58.

[30] الأمير عبد القادر، الديوان ص ص 153، 154.

ج /الحب الإلهي ووحدة الوجود:

Commenté [P1]:

وجدة الوجود من القضايا الفلسفية والصوفية التي كثر فيها الجدال وتعددت الآراء في فهمها وشرحها وتقريرها، ونحن هنا نورد تعريفها مختصرا ثم نعرج على علاقتها بحب الأمير الصوفي، والصوفي يرى الوجود مختلف عما يراه بقية الناس "وذلك أن مطاهر الوجود المختلفة ترجع كلها إلى حقيقة واحدة وبكلمة أخرى أشد صراحة :أن الله يتجلى في العالم في صور مادية أو روحية مختلفات فكل نوع من العبادة تجد الله وراءه وكل شكل من الحب يقصد به الله وكل مهر طبيعي يمثل صفة من صفات الألوهية"[31] وهي كما يبدو بعيدة عن المعتقد الإسلامي في الألوهية فالله سبحانه وتعالى منزه عن الشبيه والنظير فليس كمثله شيء وهو السميع البصير لكن سرت هذه الفكرة إلى التصوف الإسلامي من مصادر أجنبية في مرجلة تحول فيها التصوف من طابع السني إلى الطابع الفلسفي، غير أن الشعراء الصوفيين يتدثرون بالرمزية التي تبعدهم عن الظنة و الشبهة زمن اشهر من نادى بهذه الفكرة ابن عربي في مؤلفاته النثرية وفي دواوينه الشعرية وعلينا الآن أن نتساءل هل كان الأمير ممن يقولون بوحدة الوجود ؟ وكيف تناول هذه الفكرة في شعره ؟يجيبنا الأمير عن السؤال الأول بقوله: واحذر أن ترميني بحلول واتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك فإنني بريء من كل ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليه[32]، وللأمير قصيدة غزلية طافحة اقترب فيبها من الهيام الصوفي والوجد وقد اختار لها جامع الديوان عنوانا مقتبسا من أحد أبيات القصيدة وهو قوله: أنا الحب والمحبوب والحب جملة، و الحب الأولى بكسر اللحاء ومعناها المحبوب وفيها يلم ببعض الإشارات الى الاتحاد بالمحبوب يستهلها بقوله:

عن الحب مالي كلما رمت سلوانا أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا

[31] عمر فروخ، التصوف في الإسلام، ط 1 بيروت 1366 هـ 1947 م ص 147 .

[32] عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، ص 180.

لواعج لو أن البحار جميعها صببن لكان الحر أضعاف ما كانا

فلو أن ماء البحر طرا شربته لما نالني ري ولا زلت ظمآنا

يصف الشاعر مقدار حبه و شدة ظمئه ويشير إلى المعنى المتداول عند الصوفية وهو أن من بلغ الري فليس كاملا في الحقيقة لأن المحب الحقيقي والعارف لا يرتوي أبدا لأن الحقيقة لا نهاية لها لذلك فهو يتزيد أبدا، والرسالة القشيرية وغيرها مليئة بأقوال الصوفية في ذلك، ثم يستمر الأمير على هذا النمط حتى يصل إلى أبيات يكاد يعانق فيها القول بالاتحاد و الحلول أي اتحاد المحبوب بمحبوبه أو الحلول فيه وهذا قريب مما كان يلهج به الحلاج، يقول الأمير:

أسائل من لاقيت عني والها ولا أتحاشاهم رجلا و ركبانا

وأسأل عن نجد وفيه مخيمي وأطلب روض الرقمتين ونعمانا

منازل كانت لي مصيفا ومربعا غداة بها أدعى صبيا وشيبانا

ومن عجب ما همت إلا بمهجتي زما عشقت نفسي سواي وما كانا

أنا الحب والمحبوب والحب جملة أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

يسأل الشاعر كل راكب وراجل في رحلته الى المحبوب عن الديار التي تذمره به وهي مواضع ببلاد الحرمين على طريق الحاج ويتعجب الشاعر من أنه لم يعشق إلا نفسه وذلك لأنه صار و هو المحبوب شيئا واحدا و بلغ الحبي بينهما درجة الفناء فصار لا يشاهد من العالم إلا المحبوب ويعبر الصوفية عن هذه الحالة بقولهم: فني عن الاغيار أو عن السوى أو فني عن الخلق فلم يبق الا الحق، لقد تطورت فكرة الفناء فصارت عند المتأخرين حلولا، فهل يعني الأمير بهذه الابيات هذه المعاني الحلولية ؟ إذا تذكرنا تحذير الأمير من أن يقرأ شعره على هذا المحمل لم يبق لنا إلا أن نحمله على أنه تقليد فني لا غير.

وفي خاتمة هذه الكلمة نخلص إلى النتائج الاتية

التصوف منهج في تزكية النفس وتربيتها في معارج الكمال إلى أن تصل إلى مقام الإحسان حيث يصبح العارف مع ربه كأنه يراه بقلبه.

للصوفية طريق مختلفة في تلقي العلوم والمعارف ذلك أنهم مع تمام رعايتهم لعلوم الشريعة من علوم قرآنية و علوم سنة وفقه وغيرها مع تلك العلوم الجليلة يأخذون أنفسهم بتلقي علوم أخرى من غير طريق الرواية و التلقين بل عن طريق الرياضة والتعبد و الزهد فإذا بلغ الصوفي درجة من الصفاء الروحي ألقى الله إليه بالأسرار و العلوم اللدنية و هذا ما لمسناه في حياة الأمير عبد القادر فقد تشبع بعلوم الشريعة غير أنه تدرج في مدارج العرفان وتلقى الطريقة عن والده و مشايخه فصار في عداد المتصوفين.

طرق الأمير في شعره موضوعات و اغراضا متنوعة منها ما هو تقليدي و منها صوفي، وألم بكثير من المعاني التي سبقه إليها غيره من شعراء الصوفية كابن الفارض و السهروردي و غبرهما.

يقوم الحب الإلهي عند الأمير على التعلق بالله تعالى واللجوء إليه واتخذ في التعبير عن هذا الحب الأسلوب الرمزي فتاره يعبر عنه بأسلوب خمري و تارة بأسلوب غزلي وهو في كل ذلك يتبع الرمزية الصوفية التي تخفي أكثر مما تعلن.

اقترب الأمير عبد القادر في شعره الغزلي من القول بالوحدة والحلول غير أنه كان في ذلك مقلدا لا معتقدا.

المصادر والمراجع:

الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق وشرح: ممدوح حقي، دار اليقظة العربة للتأليف والترجمة والنشر، دمشق.

إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف ـ الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، د ت د ط

ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، ط 3، 1424 هـ ـ 2003.

ابن فارس أبو الحسين بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.

الفراهيدي،الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، د.ب، د.ط، د.ت،

القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، كطابع مؤسسة الاشعب، 1409هـ

عبد الجليل ساقني والصديق تياقة، الطريقة القادرية كمنهج في التصوف بالجزائر، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية مج، 19 العدد 18، جامعة 20 أوت، سكيكدة، 2019.

عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري2002 م.

العرباوي عمر، كتاب التوحيد المسمى: التخلي عن التقليد، الجزائر، 1404 هـ

عمر فروخ، التصوف في الإسلام، ط 1 بيروت 1366 هـ 1947 م

السهروردي،أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك المقتول، ديوان السهروردي، صنعه وأصلحه: الدكتور كامل مصفى الشبيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، 2008.

النفري، المواقف والمخاطبات، تحقيق: أرثر أربري تقديم عبد القادر محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.